تسليم

مجلة فصلية محكمة

مختصة بعلوم اللغة العربية وآدابها

تصدر عن

العتبة العباسية المقدسة

مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات

السنة الاولى المجلد الثاني العددان الثالث والرابع

ربيع الثاني ١٤٣٩هـ . كانون الاول ٢٠١٧م

الترقيم الدولي
ردمد:2413-9173
ردمد الالكتروني:2521-3954
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق العراقية 2193 لسنة 2016 م
كربلاء المقدسة - جمهورية العراق

Tel: +964 032 310059 **Mobile:** +964 771 948 7257
http: //tasleem.alkafeel.net
Email: tasleem@alameedcenter.iq

"في التسليم للعترة الأطهار"

تشكّل المعنى القرآني في المقولات والمحاجات والرؤى للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام

Quranic Content Formation in the Speeches Argumentations and Viewpoints of Imam Ali Bin Mosa Al-Ridha

م.د.سعيد حميد كاظم
العراق/ مديرية تربية بابل

Lectur.Dr.Sa`aed Hameed Kadhim
Iraq/ Education Directorate of Babylon

Saeedhamead74@gmail.com

تاريخ التسليم: ٢٩/ ٩/ ٢٠١٧
تاريخ القبول: ١٨/ ١٢/ ٢٠١٧

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

الملخص

تتجلى حساسية الخطاب الوعظي والإرشادي في أقوال الإمام الرضا عليه السلام من مرتكزة البناء والتوجيه، وتترشح الرؤى القرآنية في خطابه ومقولاته ومحاججاته التي وجدت صداها في التأثير بوصفها المنعطفات المهمة التي شكّلت التحولات الحاصلة في المسرى الإنساني الذي أصابته بعض التصدعات من جرّاء تعاقب السلطات العباسية الضالة، لذا كان من الطبيعي أن تأخذ الأقوال والمحاججات للإمام عليه السلام طريقها للحضور؛ لكونها الامتداد الحقيقي لقيم السماء والسيرة المحمدية، وبهذا فإن إطلاق التوصيفات الدالة على الإرشاد والوعظ لا تنحو بعيداً عن احقاق الحق، لكونها لا تمايز في محتواها القرآني والإنساني؛ لأنها مستمدة من المضمون القرآني الداعي إلى اقتفاء الأثر النبيل في القيم، والاهتداء إلى السبيل من خلال العدول للحدو في المسارات الصائبة.

ويبقى المعنى القرآني في المحاججات والمقولات من الموضوعات التي تصدّرت نصوص متون أقوال الإمام عليه السلام الإرشادية، وعلى وفق تشكلات هذه الرؤية القرآنية يمكن القول بأهمية وخصوصية الخطاب للإمام عليه السلام بوصفه مشروعاً مبحثه زاخر بالدلالات والمعاني التي شكّلت توجهاته المستمدة وجودها من قيم القرآن الكريم، أمّا أهم التجليات التي ساهمت في إبراز جوانب الكشف عن الموضوع الإصلاحي في الأقوال والمحاججات الذي يفتح بواباته بالعطاء على تفصيلات تستمدّ نسغها من الواقع القرآني لتجد صداها في الأثر الإنساني، إنما هو الهاجس الأهم الذي يتشكل في رؤاهم وتوجهاتهم، كي لا تفقد الأمة أعز ذخائرها للوصول إلى المنجاة لمواجهة الهلاك.

إنّ استدعاء هذه الموضوعات من المقولات والرؤئ هو سلوك يقظ، بل كان ضرورياً لكون بعض الأفعال العباسية انسحبت على السلوكيات الإنسانية التي انحرفت عن المضمون بسبب ما أفرزته بعض المقولات العباسية والتي تمكنت من الدخول إلى قداسة النص القرآني وتحريف بعض مساراته، وتكريس تلك الأفعال بنحوٍ جاد من أجل خلق الاشتباك الفكري والعقائدي للناس، والحدو بهم نحو الجدل والسجال الذي لا يؤدي إلا لمزيد من الضلالة، وتشكيل نهايات وعواقب منحرفة عن المسار القرآني.

humanity pathways whose discourse desecrates the Quranic text , twists its scopes and deliberately leads these acts to cast people into intellectual and doctrinal controversy granting nothing but mischief and divergence from the Quranic orientation.

Keywords:

argumentations, Quranic viewpoints , Mohammadist chronicle, Abbasid machinations, Quranic text

Abstract

The crucial importance of preaching and guiding discourse of the Imam Al-Ridha (Peace be upon him) lurks in the locus of edification and orientation and the Quranic viewpoints float from his discourse , sayings and argumentations finding resonance as essential detours to change the humanity pathways groaning from the rogue Abbasid authority concession. As such these pillars find existence and breath as they incarnate the concatenation of the divine doctrines and Mohammadist chronicle.

Promulgating the acts of orientation and preaching targets only doing justice ; no sense of prejudice as it emanates from the Glorious Quran calling to trace nobility and take hold of salvation through the right pathways.

The Quranic content dominates the core of argumentations and speeches found in the preaching sources of the imam : it is of importance to state that the essentiality of his discourse gets invigorated with the Quranic principles in the discourse granting the opportunity to drag the reforming project into light ,otherwise the nation tends to be deprived of the most precious of its sources to confront perdition, which is the great role of the Quranic initiatives.

Manipulating such issues could be a paramount procedure , or rather exigent, as the Abbasid machinations derail from the

المقدمة

لا يخفى أن التمسك بهذه المقولات التي لها بواعثها المقصودة تخلق نوعاً من الإقبال إلى الإسلام المحمدي الحقيقي، وبهذا فلا مناص من الإقرار بجدوى أهمية الخطب للإمام ﻋﻠﻴﻪ السلام وأثرها لتغيير القناعات والتصورات، لتترسخ من جديد على وفق المنهاج الإسلامي والإنساني القويم التي كان في مقدمتها تأكيد الخطاب القرآني للعمل بمضامينه وترسيخ القيم المحمدية.

ولا شك في أنّ العترة الطاهرة إنما تستقي علومها وينبجس خطابها من القرآن الكريم فهم عِدْله والدعاة إلى العمل بأحكامه، وشرائعه والهداة إلى سبيله، لذلك تآلف الخطاب للإمام الرضا ﻋﻠﻴﻪ السلام مع الخطاب القرآني في بلورة رؤية موحدة بين القرآن الكريم وأهل البيت ﻋﻠﻴﻬﻢ السلام من أجل ترسيخ العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة، وأُسس الإسلام السليمة، لتبيين الأحكام التي تسعى إلى سعادة الإنسان، كذلك من أجل ردع الأفعال التي لا تنسجم مع روح القرآن، والتي تحط من الواقع الإنساني، وبهذا عمل على إعلاء كلمة الحق وجعلها العليا من خلال إثبات الدليل ومقارعة الحجة بالحجة لينتهي القول بالغلبة بما ينسجم والخطاب القرآني الذي تجلى في قول الإمام ﻋﻠﻴﻪ السلام وكان مشفوعاً بالبلاغة وسحر البيان، وتمتدُّ الحجة في القول من خلال الأخذ بلباب الفكر حيث مناهل المعرفة متخذاً سبيله على وفق مقتضى الحال، فضلاً عن وضوح دلالته وترصين خطابه.

فكان ثمة حاجة ملحة لعودة سدنة سفن النجاة، لتهتدي الأمة بهم من ضياعها من خلال التماع البرق في طيات سحب الخير الغادقة، كما أنَّ ثمة حاجة إلى ثورة إصلاحية عارمة لمن ملأوا الأرض علماً وعملاً معروفاً لإزالة سحب دكناء

تحمل غيث الإسلام الأموي، وإنما كانت المجابهة من خلال الدعوة للاعتصام بحبل الله لمواجهة دعاة الفُرقة والمتباغضين، وقرع أسماعهم بالاستدلالات والشواهد القرآنية، ولم يتوانَ الإمام عليه السلام عن مواجهة العباسيين الذين شرعوا في إشهار سيوف عداوتهم للعلويين، فقد مضى إلى مقارعة الظلم والطغيان وبطرق عديدة، وكانت الأكثر تأثيراً وأشدّها المواجهة الفكرية لادحاض الحجج الواهية لهم.

وما كان انتداب المأمون للإمام الرضا عليه السلام ليشغل منصب ولاية العهد إلا ليفرض عليه القيود ويحدد كلامه بما ينسجم وتوجهات سياستهم وما يرسّخ وجودهم غير الشرعي، وما اختيار المأمون للإمام عليه السلام لمهمة ولاية العهد إلا ليضفي بعض الشرعية على سلطته الزائفة، لكنَّ الإمام عليه السلام قد حوّل ارادتهم الواهية إلى تأصيل المنهج العلوي من خلال غرس العدل ونشر قيم السماء وبهذا تحقق الطموح الإسلامي المحمدي، ولم يكتفِ المأمون بذلك فقد وضع الإمام الرضا عليه السلام في مناظرة مع العلماء اليهود والنصارى والمجوس والطبيعيين والقدرية والمرجئية من أجل وضع الإمام في موقف يوهن وجود أهل البيت عليهم السلام، ولكنْ في الموقف الآخر أثبتَ الإمام عليه السلام عمق وجودهم من خلال التمسك بهدي القرآن ونهج جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومسيرة الحق لسيد الأوصياء والأولياء عليه السلام.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنَّ أقوال الإمام عليه السلام تسعى إلى تحقيق المسافة الجمالية بين المتلقي والنص من خلال ترسيخ القيم المعرفية والدلالية وانطلاق الفاعلية التأثيرية وتحوّلها إلى بؤرة اهتمام معرفي، فضلاً عن توطيد الحصيلة النضالية التي وجدت صداها في النفوس من خلال الاطّلاع على سيرة الإمام عليه السلام وما ترك من روافد القيادة المحنكة والخبرة العالية التي ارتقت بالوعظ والإرشاد والتحلي بالحكمة، والدراية بعواقب الأمور، وتقديم النصح لأنصاره واتخاذهم إيّاه رمزاً للرسالة

المحمدية، واقتداءً بالرسول الكريم ﷺ وجدّهم الإمام علي عليه السلام، ومن سار على دربه من العباد الصالحين، ليستأنسوا بأقواله الدالة على الاستبصار، والاقتداء بآرائه مما غمض عليهم من أحكام الفقه والشريعة والاستناد على دلالة محاربة الضلال والضالين.

وبهذا تمَّ تقسيم المحاور على وفق المعنى القرآني في المقولات والمحاججات، ليأتي الخطاب دالاً للرؤى القرآنية، لتتجسّد المعرفة منهاجاً للسؤال، ويتشكل الخطاب بوصفه معْلماً معرفياً وبلاغياً، ويتجلى فيه الدعاء وسيلةً ومنهاجاً إنسانياً، لتنتهي بالمقاصد الاصلاحية بوصفها المصاديق للمقولات والرؤى.

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ المقولات والمحاججات قد تشكّلت منهما الرؤى للإمام عليه السلام في هذه المحاور، لتبقى موضوعة الرؤى متشكلةً منهما؛ إذ بمجموع رؤاهما تتضح رؤى الإمام عليه السلام عبر مقولاته ومحاججاته.

وفي ضوء ما تقدّم يتبين أنّ قضايا الفقه والدفاع عن قضايا الشرع الإسلامي، ونشر أصوله وفروعه من أبرز ما قام به الإمام عليه السلام منذ توليه الإمامة مستنداً في ذلك على المنهاج الإسلامي والنهج المحمدي العلوي، وبهذا تشكّلت ثمة مسارات أُخرى تجلت عبر محاور منها:

المحور الأول: المعنى القرآني في المقولات والمحاججات

لقد تضافرت الفاعلية القرآنية والبلاغية في أقوال الإمام عليه السلام، وكان في ظاهرها العلم والعقل، وفي تأويلها الإيمان بالجانب الروحي وتفعيل دوره، وبهذا فالأقوال تفرض سلطتها لتكون آلية من الآليات التي تستمد خطابها من الاستدلال

القرآني، فضلاً عن أنها بنى متناسقة ومتماسكة ومتلاحمة لايدخل إلى مساربها الضعف، فهي أقوال تجسّد الحضور الواضح في القيم الإسلامية والمبادئ السامية.

إنّ تلك الأقوال إنّما تتضح مركزية بنيتها الدالة لتتآلف مع البنى الأخرى في النص الخطابي الوعظي منه والإرشادي، وتكشف دائرة النصح فيها بشكلٍ واضح لتأخذ المتلقي حيث أطراف الهداية بعدما يتم الارتكاز عليها، على حين تنبثق منطقة الاتساع الفكري، وهي تشتمل على منظومتي التحريك الذهني للتأمل والإمعان والاستبصار، والمسار الآخر تنمية المدركات الحسيّة للتهيؤ نحو تأكيد الأثر الفكري الذي يسحب المتلقي إلى التصدي لمواجهة المواقف المنحرفة من خلال التصدي لها وقرعها بالحجة والدليل.

وبهذا نجد سلسلة من التحولات التعبيرية قد ارتكز عليها قول الإمام ﷺ، وثمة منظومات تساؤلية تحفّز الذهن للمتلقي لأن يراجع بعض ما عَلِق بفكره من مواقف مخطئة، ليقدّم لها المعالجة سعياً للوصول إلى جادة الصواب، ولعل مما يحسب لتلك النصوص هي اكتنازها الطاقة الدلالية الثرّة، فضلاً عن أنّها سلّحت نفسها بالاصلاح لمواجهة تقلبات الدهر ومقاومة شخوصه الضالة.

وفي هذا النمط نجد أن ثمة رؤى عديدة للإمام ﷺ تفصح عن نفسها بمقصدية واضحة وعلى سبلٍ شتى، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ثمة تأكيد–على سبيل التمثيل– لترجيح المعنى القرآني في تحديد المسار الأول لنوع العلاقة الإنسانية وكيفية تحديدها قبل الدخول في مسألة الأحكام والشرائع، وإنما يتجسّد ذلك بأن خير السبل للمعرفة الأخوية الحقيقية هي الأخوة في الله تعالى، فهي من أقوى الروابط بينهما؛ لكونها تقدّم المصلحة العامة على المصالح الذاتية الضيقة الأفق، وبهذا روي

أن الإمام الرضا عليه السلام قال لأخيه زيد : ((أنت أخي ما أطعت الله، فإن عصيت الله فلا أخاء بيني وبينك))[1].

وإنما يجزم هذا القول بتأكيد الأخوة التي يكون الانتماء فيها للفكر وللقرآن وللقيم السماوية التي تُعدُ خيرَ وسيلةٍ للارتباط بين العبد وأخيه، والعبد وربّه، وليس الانتماء العاطفي أو النسبي الذي يتأتى من صلة القربى على حساب المبادئ الإسلامية، وهذا ما يجد صداه في الأثر القرآني القائل:

((ونادى نوح ربّه فقال ربِّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحق وأنتَ أحكم الحاكمين* قال يا نوح إنّه ليس من أهلك إنّه عملٌ غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين*))[2].

هذه المحاورة القرآنية تكشف أنّ الصلة إنما تتوطد بالمقربة من الله تعالى، وغير ذلك يُعدّ بعيداً عن صلة القربى، انطلاقا من أن معصية الله تعالى تتجه نحو النار ((ومن يعصِ الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً))[3].

ومما يحسب لتلك الأقوال امتيازها بالحركة والحيوية والتحوّل، واتخاذها منهاج العدالة؛ ليكون السبيل إلى الله تعالى، ومما يلحظ في أكثر امتداداتها أنها تسعى لكشف نوع العلاقات والأبعاد التي تتضمن في مختلف مساراتها ألا وهي الأبعاد الإسلامية، إذ ثمة روابط قائمة بين مقولات الإمام عليه السلام وما ترشحه الآيات القرآنية، بل أكثر ما يجلب الانتباه أنَّ تراسل الحواس تسهم في فهم النص فالايعازات للسان والعين والغرائز النفسية قد سيطرَ النص على تطلعاتها، وغطّى مجملها بالراصد والرقيب من لدن الله تبارك وتعالى، وإنما تشكّلت معالم جمالها بما أضيف لها من الغاية وهي(رضا الله)، وبهذا تجلى التوظيف السليم لبلورة الرؤية القرآنية.

ومما نلمحه تحرّك الرؤى القرآنية على وفق منظومة من الأفعال الدالة التي يتعالق فيها الحسي بالعقلي لينتج التشذيب على وفق طرائق مختلفة، بل والأكثر من ذلك أن الأقوال قد تضمنت على حوار داخلي يخاطب النفس بشكلٍ واضح بصيغة فنية تحقق الإثارة والتهيؤ للإنفتاح الروحي، فهي ضرب من الإيجاز- كما يرى الجاحظ- يقتضيه الفعل السلوكي لجلب النفس نحو الطمأنينة، أما ما تتضمنه بعض الأساليب، فإن فيها من التقريع والتوبيخ ما يكفي لتأنيب المقصّر الذي يجهل الأحكام ويجحد الكرم الإلهي، وتوجيه بعض المضادات السلوكية لسَوق النفس إلى الوقوف على منابع الاستدلال القرآني، بل والأكثر من ذلك أنّ بعض الأقوال قد ارتكزت على تكذيب الادعاءات الباطلة التي يُبتغى منها التضليل وإنتاج الانحراف الفكري والعقائدي، وتجلت من خلال تقديم الأجوبة المسكتة أو الخروج عليها بأساليب النفي الإسلامي المهذب، وبهذا يُستدل على أن نفي النفي إثبات للدحض ولترجيح الراجح في البيان، فضلاً عن احقاق الحق لتحقيق أكبر مساحة للإصلاح وردف ذلك بالتوجيه.

ومما يجدر الإشارة إليه أن أقوال الإمام عليه السلام تتخذ سبيلها نحو الحجة العقلية التي تُوسَم بالإقناع، فتوَلِّد في ذات المتلقي اليقين القاطع بصحة الحجة، كما تحقق له اليقين تجاه الشبهات في مسائل التوحيد ومسائل أخرى يعلو فيها صوت الحق، وهي لا تخلو من نصائح تقرّب العبد إلى ربه وتبعده عن دائرة الضلالة، ويتأكد قول الإمام عليه السلام من خلال تأثيره الإيجابي الكبير في النفس، بل وتحقق في التفاف المزيد من الناس حول الإمام عليه السلام وتركهم السلوكيات الخاطئة، ((عن الحارث بن الدلهاث، عن أبيه، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: إنّ الله عز وجل أمر بثلاثةٍ مقرون بها ثلاثة أخرى، أمرنا بالصلاة والزكاة، فمن صلّى ولم يزك لم يقبل منه صلاته، وأمر بالشكر له

للوالدين، فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله، وأمر باتقاء الله وصلة الرحم، فمن لم يصل رحمه لم يتق الله (عز وجل)))[٤]، ونجد مصداق قول الإمام عليه السلام في الآيات القرآنية الكريمة الآتية: ((وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون))[٥]، و((وقضى ربك ألا تعبدوا إلا اياه وبالوالدين إحسانا))[٦]، و((ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهنٍ وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير))[٧]، لتبقى الآية الأخيرة هي الدالة على قوله عليه السلام، والتي يتأكد في مسار الآية الكريمة صلة الرحم إذ يقول تعالى:((يا أيّها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء وأتقوا الله الذي تساءلون به والارحام إنّ الله كان عليكم رقيباً))[٨].

ثمة خصائص مميزة أكسبت النصر للإمام عليه السلام كشفت عنها المقولات والمحاججات وتشكّلت من خلالها الرؤى، فأنتجا أبعاداً مكانية وزمانية تتجاوز الراهن وتستمر في حضورها على مدى الأزمان، وهي رؤية اتسمت بالخلود، لكونها قد أقيمت على وفق محددات ورؤى تتوافق وواقع العصور وليس العصر الراهن فقط، وهو ذاته الخلود الذي شمل حياتهم وتاريخهم الحافل بالمجد، وبهذا فهم يتواضعون للثناء ويبتغون في عملهم وجه الله تبارك وتعالى، ولذا عندما يكثر المديح والثناء للإمام عليه السلام يتواضع جداً ويكشف لهم عن المفهوم القرآني وهو يوضّح شرف المقربة من الله تبارك وتعالى:

((عن محمد بن موسى بن نصر الرازي، قال: سمعت أبي، يقول : قال رجل للإمام الرضا عليه السلام: والله ما على وجه الأرض أشرف منك أبا، فقال:عليه السلام: ((التقوى شرفتهم، وطاعة الله أحظتهم))، فقال له آخر : أنت والله خير الناس، فقال عليه السلام له

: ((لا تحلف يا هذا، خير مني من كان أتقى لله تعالى وأطوع له))، ألم تقرأ قول الله تعالى : ((وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم))[٩].

يترشح من قول الإمام عليه السلام ميله المؤكد لمضامين الآية القرآنية التي تؤكد على إعلاء التقوى؛ لتكون هي الفيصل في معرفة المقرّب إلى الله تبارك وتعالى مع علمنا أنّ الإمام عليه السلام هو الموسوم بالورع والتقوى والمقربة من الله تبارك وتعالى، لكنه عليه السلام يريد ميل الأنظار إلى مضامين الآية الكريمة، وأنه يحتكم إلى مضامين القرآن الكريم في استنباط الأحكام؛ لتكون الدال والشاهد والحاكم.

المحور الأول: الخطاب دالاً للرؤى القرآنية

إنّ الدلالات المضمرة هي دلالات تتآلف مع الدلالات الظاهرة، ولكن تبقى بعض الدلالات تعطي معناها عبر الدلالات الضدية لكشف الخبيء من القول، نظراً لمقتضيات المواقف مما تنسجم العلاقة بين النص والسياق، ويظل النص يلاحق الموعظة حتى يظفر بها، فضلاً عن الدلالات المضمرة التي تُعد ترسيخاً للمعارف، وإثارةً للجدل المعرفي الواسع وزيادةً للتمثّل الذهني.

وكي نلمس آلية عمل لهذه السمات والخصائص الثاوية في النص لا بدّ أنْ نعرض مناهجنا على وفق رؤى متعددة فيها، لتمضي فكرة تجسيد الرؤى القرآنية من أجل توفّر الإقناع لدحض التضليل وتسري فكرة الإرشاد، وتمتدّ تلك الدلالات لتأخذ منحىً للتوازن الفكري كي تحقق إدراكاً جمالياً تمارس فعلها، وتفتح حدوده أمام المعرفة الإنسانية، وهي تعمل على تنظيم معارفها على وفق وعي يعلن مساره في تقرير المصير، وتؤشر المعرفة بعدها الرمزي، فضلاً عن تعيين موضوعاته العبادية على وفق مقتضيات النص، ليتضح استلهام الخطاب ورغبته في عمل تناص مع القرآن الكريم، وانسجام النص ضمن الرؤى القرآنية في حبكة فنية ومعرفية، وبهذا لا يجد المتلقي تبايناً بين المقولات وما يترشح منها من رؤى.

لقد اشتملت أقوال الإمام عليه السلام مجموعة من الخطب والمواعظ معززة بالحكم والوصايا، وفيها دعوة للتمحيص في المعرفة ودحض الإدعاءات والتخرصات، كذلك وجدنا في النص صيغاً فلسفيةً بلغت الغاية في عمقها وشمولها؛ لما لها الدور في تأسيس فكرة الإصلاح ونشرها، فما كان من الإمام إلا أن يحث الإنسان المسلم على الارتقاء إلى مراحل إيمانية عالية والتحليق في مدارات روحية أسمى ..

وتجدر الإشارة إلى أنّ أقوال الإمام عليه السلام تنبع عن فكر موضوعي وذوق سليم وعميق شامل ودقة وتماسك فكري، بل يمكن القول إنها أصبحت وثائق لمقارعة الروح الجافة ومن فقد الشعور الإنساني وجفتْ مشاعره، ويكون ذلك للأرواح التي ابتعدت خطاها عن المسار الصحيح وتصلدت بصيرتها.

لقد ارتكز النص على التحديد والاستدلال عبر الوعي الإنساني، وغرس قيم قادرة على المواجهة والثبات في أبعاد دلالية وتواصلية في كشف مندلفات علاماتية ذات طبيعة ثقافية وفكرية واجتماعية وسياسية لينحو العمل نحو تكامل جديد، وبهذا روى الصدوق أن عبد السلام بن صالح الهروي: قال سمعت الإمام علي الرضا عليه السلام يقول: ((رحم الله عبداً أحيى أمرنا، فقلت له: وكيف يحيي امركم؟ قال: يتعلم علومنا ويعلّمها الناس))[١٠]، وما تأكيد الإمام عليه السلام بإحياء أمرهم من خلال إبراز علومهم إلاّ لأنها الامتداد الحقيقي لعلوم القرآن ومضامينه، إذ لم يجعل إحياء الأمر بذكر الأسماء، إنما بتعلم هذه العلوم وإظهارها للناس حتى تتحقق القناعة بأنهم الامتداد للقرآن، وبهذا فالعلوم مصدرها القرآن الكريم، والقرآن هو الدستور الحقيقي لمن يريد الهداية، وهذه الدعوة إلى التمسك بالله وبرسوله وبأهل البيت عليهم السلام من خلال المرور بهذه السلسلة التي يربط مضامينها نور الرسالة الإسلامية المحمدية، التي تدفع كل البِدَع، وكل ما هو من صنع العباسيين ومن تلاهم في وضع عبودية أخرى تهدف إلى عودة الجاهلية وتجاهل قيم السماء، وحتى يأخذ الدين مسراه السليم لابدّ أن يكون التمسك بالله ورسوله وعترته من خلال قول جده صلى الله عليه وآله وسلم ((إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا))[١١].

إنّ استحضار الوعي الغائب في أقوال الإمام عليه السلام يشغلَ مساحةً جديدةً من خلال رفده بالمؤهلات لحضوره من جديد، وقد عوّل الإمام عليه السلام على ذلك من خلال تسليط الضوء على المشاهد الغائبة التي تستدعي المتلقي التركيز على التأويل في فهم النص، وهو نفسه ما يتطلبه القرآن في مغادرة الفهم السطحي له والتعمق في القول لفهم النص القرآني، وتعزيز إطار المبادلة الفكرية، لتكون البديل عن التخمين في الكشف أو حتى الإرتكاز على التهويمات.

كانت أقواله عليه السلام مورداً للبحث والنقاش بقوة الاستدلال وأصالة الرأي، وارتقاء سلّم القيم، وفيها دعوة لكبح جماح النفس وإيقاظ سبل الخير، وتضمنت إرشاداته عليه السلام استئصال شأفة الشر من الذات الإنسانية.

ولا شك فهم شموس الهداية الأبدية، وثروة التعاليم التربوية والحضارية التي تدعو إلى مدارج الكمال، وهم الدعاة إلى أساليب رصينة تقرّب العبد إلى ربّه، وإنما يتجلى الأمر فكراً ثم العمل الذي يفجّر طاقات النفس، ولا سيما إن اقترن بدوافع نبيلة ونية خالصة.

لقد استطاع الإمام عليه السلام بقبوله السلطة السياسية المعهودة له قسراً أن يناورَ بطريقة بارعة في مواجهة الضغوط والمراقبة الشديدة، وأن يحقق أهداف الدعوة المحمدية، من خلال إتساع نفوذه في العمل السياسي، وبهذا تصوّر المأمون أنّه نجح في إبدال الظرف السياسي الخانق إلى ما يوافق ارادته؛ لكنّ الإمام عليه السلام ردّ على ذوي الأطماع للنيل من منزلته، وأثبت ذلك من خلال ردوده على علماء مختلف الملل والمذاهب الذين عوّل عليهم المأمون، والذين يخلقون عالماً من التشكيك والتعتيم ونشر الضلالة، فما كان من الإمام عليه السلام إلا أن نلمس العمق العلمي في الاستشهادات

التي يسوقها من أقواله وإفحامهم؛ ذلك أنّ الضغط على الفكر الراجح كلما ازداد نما الوعي وانتشرت الرسالة، وكلما أُريد قمعه تجذّر أكثر وامتدت مساحته بشكل أوسع؛ لأن الفكر لا يقارع إلا بالفكر، لذلك ترك الإمام عليه السلام الأفكار تتصارع ليستنتج القارئ مسار الحق يميز فيه الجيد من الردىء.

ومن الواضح أنّ ثمة تمظهرات عديدة تتولد في القول منها الاحتجاج النظري من خلال قرع الحجة بالحجة، ومنها الاحتجاج النظري والشفوي بالعملي من خلال سَوق الكلام للمزيد من الأمثلة الحياتية وربما التاريخية والبعض الأغلب تُنتج في الأمثلة القرآنية، لتكون الدليل إلى النضج في التعبير والشاهد في الاستدلال.

ومما تم ذكره أنّ ثمة مقاييس جمالية للأقوال، وبُنيتْ على جملة من الأفكار والمفاهيم، وهي من أسست وجودها للتأثير، ومما يلاحظ أن النصائح مليئة بالتدفق الوجداني، وفيها لحظات تأمل لاستحضار عالم آخر يردعه عن فعله ويدعوه إلى الرجوع إلى الهداية والاحتكام إلى العقل، فضلاً عن أنّ بعض الاسئلة شكّلت الترجمان إلى المعرفة القرآنية.

المحور الثاني: المعرفة منهاجاً للسؤال

ثمة معارف متناسلة من الأسئلة المثيرة تدفع المتلقي إلى توخي الدقة في الحكم، وربما هو تأكيد لما حصل مع الأمثلة القرآنية التي أوردت اعتماد وجهة واحدة في الحكم على ظاهرة ما، أو موقف يتطلب الأمر فيه الاستماع للوجهة الأخرى، لذا كانت الاسئلة عند الإمام عليه السلام معياراً دقيقياً للحكم النموذجي، ولاسيما أنّه يسوقها

على وفق مقتضى الحال، فضلاً عن توفر الأجوبة المستمدة من القرآن لاخماد الأسئلة الواهية التي تمّ طرحها من دون مسوّغ فكري.

ومن المسوغات التي أوجبت تشكل الخطاب على وفق المضمون القرآني، هو ثمة أسئلة ينبغي حضورها؛ ذلك أنّ في كل زمن يتواجد مجموعة من المشككين أو القائلين بعدم وحدانية الله تعالى، وحتى يحقق الإمام عليه السلام المقصد القرآني في إثبات وحدانية الله تبارك وتعالى فقد عرض على المشككين استدلالاته القرآنية في سؤالهم عن الله تعالى هل يوصف؟ فأجاب الإمام عليه السلام أما قرأتم في القرآن الكريم ((لا تدركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار))[12]، وبعد عرض الآية الكريمة تناولها بالشرح والتحليل بعد ما كان مقصد السائل أبصار العيون فأجاب عليه السلام إنّ أوهام القلوب أكبر من أبصار العيون، فهو لا تدركه الأوهام وهو يدرك الأوهام[13] فالمحاججات في الوجود الإلهي إنما يكون في البصيرة فهو (جلّ جلاله) لم تدركه الأبصار، ولكن تجده القلوب الطاهرة التي تُعدّ المكان الذي ينظر الله تعالى إليه، ولذا على العبد أن يذكر آلاء الله تعالى ونعمائه والتي تتعسّر عليه احصاء هذه النعم، وبهذا التأكيد يريد من الناس أن تلتفت إلى التبصر بنعم الله الذي لا إله إلّا هو.

وبهذا التجلي يضع المشككين والطالبين وصف الله تعالى في حيز آخر للتفكير، ومما يوحي من كلمات الإمام عليه السلام هو اثبات ابتكار الأشياء وابتداعها له جل جلاله وتبيان للخلق حكمته ورحمته ومقدرته ثم بعد هذه النعم والألطاف الالهية، وثمة دعوة أخرى هي الدعوة إلى الطاعة لأوامر الله (عزَّ وجلَّ) وعبادته بعد القول بوحدانية الله سبحانه وتعالى يجد الإمام عليه السلام أنّ ثمة مهمةً أخرى لابدّ من تركيزها في أذهان الناس، وهي وجوب التأكيد على الإسلام الحقيقي الذي جاء به جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وضرورة اتباع السبل الحقيقية للوصول إلى أهدافه لا الإسلام الأموي

الذي غيّر جادة الأحكام والقيم الإسلامية، وإنما يبتدئ بسيرة جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم التأكيد على أن منهل الإسلام ومجراه إنما اختصَّ بأهل البيت عليهم السلام وأنهم حاملو الرسالة ومنهاجها ومضامينها وهم الأعلم بها من غيرهم وما سلطان بني أمية والعباسيين إلّا من أجل التسلط وتسخير الأحكام والشرائع بما ينسجم وحكمهم الدنيوي، مذكراً بفضل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على العرب، وإبعاد العبودية عنهم والقضاء على التسلط ونشر العدالة والمحبة بعدما أنقذهم من الشرك والضلالة.

ولا يخفى أنّ أهل البيت عليهم السلام هم رموز العقيدة وأبواب العلم، لذا عمل الأعداء ضدهم بطريقة إثارة الشبهات والشكوك من أجل خلق مزيد من النيل من مكانتهم، وإنما جرى عبر أساليب وطرق مختلفة، بينما كشفتْ بعض الأسئلة المطروحة أنهم أصّلوا التوحيد من أجل توصيل العباد إلى المعرفة الحقيقية وإنما كان ذلك من خلال الأجوبة الناجعة، وأجابوا عن الأسئلة المحيّرة في بال المشككين والطامحين للتشكيك، وبهذا فهو كشف للأجيال اللاحقة لضمان حصولهم على الأجوبة، لتثبيت التوحيد الحقيقي.

من هذا قال الإمام الرضا عليه السلام: إني لما نظرت إلى جسدي فلم يمكني زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجرّ المنفعة اليه، علمت أن لهذا البنيان بانيا، فأقررت به، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته، وإنشاء السحاب، وتصريف الرياح، ومجرى الشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات، علمت أن لهذا مقدّرا ومنشأً.

قال الرجل : فلم احتجب؟

فقال الإمام الرضا(عليه السلام): ((إنّ الحجاب على الخلق، لكثرة ذنوبهم، فأما هو فلا يخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار)).

قال : فلِمَ لا تدركه حاسة الأبصار؟

قال (عليه السلام): ((للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الأبصار منهم ومن غيرهم، ثم هو أجلّ من أن يدركه بصر أو يحيطه وهم أو يضبطه عقل)).

قال : فحده لي؟

قال (عليه السلام): ((لا حدّ له)) ، قال : ولِمَ؟

قال (عليه السلام): ((لأن كل محدود متناه إلى حدّ، وإذا احتمل التحديد احتمل الزيادة، واذا احتمل الزيادة احتمل النقصان، فهو غير محدود ولا متزايد ولا متناقص ولا متجزيء ولا متوهَّم))[١٤].

يتضح من الطرح الفكري أنّ الإنسان يهتدي إلى مساره الصحيح من خلال السؤال المعرفي الذي يبحث من خلاله عن الأجوبة الناجعة؛ كي لا يخطئ الإنسان طريق الصواب، لذا أمعن الإمام (عليه السلام) في أنْ يحاجج الخصوم بأسلوب يتناسب مع مقدار عقلية الخصم سواء كان من أهل الكتاب أم غيرهم ليلزمهم بما ألزموا به أنفسهم في اطلاق القرائن للاستدلال، وهي علامات تنطوي على أكثر من دال فكري ومدلول معرفي؛ لما فيها من قراءات ترجيحية بلحاظ مغزى القول، فضلاً عن أنّ نصوص الإمام(عليه السلام) شديدة الاتساع لتصل في النهاية إلى أفكارٍ عديدة وأنّ اتجاه الأفكار تكون نحو الله(عزَّوجلَّ) تعالى خالق المخلوقات وكل شيء صائر إليه، ((وما كان لبشرٍ أن يكلمه الله (عزَّوجلَّ) إلّا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء إنه علي حكيم))[١٥].

زد على ذلك فإنَّ الإمام عليه السلام لم يتردد في ايضاح بعض الأحاديث التي وضعها المغرضون التي ينم ظاهرها عن إظهار فضائل آل البيت عليهم السلام، ولكنها في الحقيقة تخبئ في مضامرها بعض الغلو أو التعمد في إظهار التقصير في أمرهم، أو تقديم المواجهة مع أعدائهم من خلال التصريح بمثالبهم، وتكون هذه الأحاديث بأسماء أهل البيت عليهم السلام من أجل تأجيج نار الفتنة ورفع وتيرة العداء معهم، مع علمهم أن أهل البيت عليهم السلام لا يجابهون تصرفات السيئين إلا بالاحسان، والإمام الرضا عليه السلام قد كشف عن هذه الأساليب التي يراد منها الإساءة إلى أهل البيت عليهم السلام عبر وسائل عديدة منها معروف وآخر مخفي، إذ يذكر ((إبراهيم بن أبي محمود: قلت للرضا عليه السلام يابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إن عندنا أخباراً في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام وفضلكم أهل البيت عليهم السلام، وهي من رواية مخالفيكم ولا نعرف مثلها عندكم، أفندين بها؟

فقال: (((يا بن أبي محمود، لقد أخبرني أبي، عن أبيه، عن جدّه عليهم السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله (عزَّوجلّ) فقد عبد الله، وإنْ كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس. يا بن أبي محمود، إن مخالفينا وضعوا أخبارا في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام: أحدها الغلو، وثانيها التقصير في أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كَفّروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، واذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله (عزَّوجلّ): ((وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ))(١٦)، يابن أبي محمود، إذا أخذ الناس يمينا وشمالاً فالزم طريقتنا، فإنه من لزمنا لزمناه، ومن فارقنا فارقناه، إنّ أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أن يقول للحصاة: هذه نواة ثم يدين بذلك ويبرء ممن خالفه، يابن أبي محمود احفظ ما حدثتك به، فقد جمعت لك خير الدنيا والآخرة))(١٧).

إنّما تكون الأفعال الحسنة هي من تقوم بتعرية وفضح أساليب أعداء أهل البيت عليهم السلام، وهي ذاتها من تقوّم اعوجاج الأذهان، وتقشع غيوم الشبهات المثارة، وهي دعوة واعية يدعو بها الإمام عليه السلام إلى أن يكون الموالي على موضوعية كبيرة وولاء حقيقي يتجلى في حفظ أقوالهم والعمل بها وأن لا يغالي كي لا يجعل الأقوال موضع الاتهام والنفور، وأن لا يسمعوا التقصير في الأقوال والأفعال، فإنّ هذا يزعزع العلاقة بين الناس واعتقادهم، وانحراف محبتهم وولائهم إلى طرق مختلفة، بل الدعوة تكمن بأن تكون الموضوعية كلها منهاجاً لكل إنسان يطمح إلى حفظ القرآن الكريم والعمل بهديه، وبهذا لا يرضى الإمام عليه السلام أن تتوجه الكلمات لذكر مثالب الأعداء وترجماناً لذلك ومصداقاً له قول الله تعالى ((ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم))[18]، مما يدعو إلى المواجهة بينهما وتضيع المناقب التي على الموالي حفظها وترسيخها في أذهان الآخرين لمعرفة أخلاق أهل البيت عليهم السلام، لينتهي الإمام عليه السلام أنهم الامتداد للنهج القرآني والمتمسك بهم لن يضل أبدا.

ومن المضامين القرآنية التي كشفت عن عمق إمامنا المعرفي بالقرآن لكونه أحد تراجمته، جوابه البديع للمأمون عندما طلب منه أن يستدل على مكانة الآل في القرآن حتى يكون ألزم للخصم مما تقدم، فقال: أبو الحسن عليه السلام: ((« نعم، أخبروني عن قول الله (عزّوجلّ) :((يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ))[19].فمن عني بقوله يس؟»، قالت العلماء : يس محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يشك فيه أحد، قال أبو الحسن : فإن الله عزّوجلّ أعطى محمداً وآل محمد من ذلك فضلاً لا يبلغ أحد كنه وصفه إلاّ مَن عقله، وذلك أن الله عزّوجلّ لم يُسلم على أحد إلاّ على الأنبياء صلوات الله عليهم، فقال تبارك وتعالى:((سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ))[20]،وقال:((

سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ))[٢١]. وقال:((سَلاَمٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ))[٢٢]، ولم يقل : سلام على آل نوح ، ولم يقل: سلام على آل ابراهيم، ولا قال: سلام على آل موسى وهارون ، وقال عزّوجلّ: عليهم السلام[٢٣]، يعني آل محمد صلوات الله عليهم »، فقال المأمون: لقد علمت أن في معدن النبوة شرح هذا وبيانه.))[٢٤]، كان جواب الإمام عليه السلام أن يختار الآية الكريمة (يس) لتكون الجواب على سؤال حضورهم ووجودهم، هذا التمسك بالآيات القرآنية تكشف مدى اللجوء إلى ركن شديد يدفع شكوك الضالين في مقربة أهل البيت عليهم السلام من رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، كذلك تؤكد استناد الإمام عليه السلام إلى إثبات الدليل عبر مسوّغات حقيقية تثبت حق أهل البيت ومنزلتهم.

المحور الثالث: تشكّل الخطاب مؤثراً معرفياً وبلاغياً:

إنَّ التأسيس المعرفي يتجلى في التوظيف الدال لمعاني القرآن في أقوال الإمام الرضا عليه السلام، وهي تمتلك زمام القدرة على التحكم في ردود الأفعال عن السلوكيات التي ينتهجها الموالين لآل أُمية، لتتداخل البلاغة بشكل محسوس في نصوص الإمام عليه السلام الأدبية، ولا سيما أنّه ينهل من ثراء معين جده سيد البلغاء والمتكلمين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، فقد اهتمت بلاغتها الموزعة فيها على وفق تمحيص لغوي، فضلا عن الدعوة إلى التحفيز لعمل الخير، كذلك جعل النص قريباً من مقصديه الأثر، وبذلك فإن النسق البلاغي قد أضاف نكهةً أخرى في المضامين الأدبية الشاخصة في قول الإمام عليه السلام، ووفقاً لذلك يمكننا القول إنّ مستوى الأسلوب إنما يتحدد في اللغة المؤثرة على المستوى النفسي، وهي ذاتها الداعية للإصلاح على المستوى الإجتماعي.

لقد اقتضى السياق في المعاني الشريفة بما تستوجبه المعاني، كذلك فقد تأكدت القيمة البلاغية في النص بوصفه مظهراً لغوياً ووجوداً فكرياً مستقلاً، اتخذ الأسلوب فيه أشكالاً مختلفة من الأداء، وقد أشادت معانيها بالمزيد من الاهتمام للمتلقي، ومنحت له الدور في التحليل واستنباط الأحكام واللجوء إلى الحكمة والعقل في مواجهة إضطراب الزمن، فضلاً عن تلمس مواطن الجمال.

ففي مواطن كثيرة يدعو الإمام ﵇ بدعوة الحق وانتهاج السبيل الحقيقي للحق والدعوة إلى الإسلام المحمدي، تلك الدعوة التي تترشح من خلالها الرؤية القرآنية التي تضمر الخير في جوانحها، لذا نجد أنّ الإمام ﵇ كثيراً ما حثّ الإنسان المسلم على الارتقاء إلى مراحل إيمانية عالية والتحليق في مدارات روحية أسمى، فمثله مارواه الفضيل بن يسار عن الإمام الرضا ﵇ قوله: ((إنَّ الإيمان أفضل من الإسلام بدرجة، والتقوى أفضل من الإيمان بدرجةٍ، ولم يُعط بنو آدم أفضل من اليقين))[٢٥]. وهي دعوة لحضور المؤشر الإيماني الذي يريد به الإمام ﵇، وهو منهلٌ لا يعتريه الشك، ويقين حقيقي يتمثل بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، فضلاً عن ترشيح المعنى القرآني في أكثر من موضع من خلال ذكره جلّ وعلا ((قالت الأعراب آمنا قُل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يتلكم من أعمالكم شيئاً إن غفور رحيم))[٢٦]، أمّا الآية التي تؤكد التقوى فهي ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير))[٢٧]، لينتهي القول بأنّ الاستدلال الحقيقي وحصول الاستبصار إنّما نجمَ من اليقين الحقيقي لنجد ذلك في قوله تعالى ((وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ))[٢٨].

إنّ اللجوء إلى الآيات كوسائل دالة على غاية الأقوال وتبيان مصادرها، يتضح من هذه المراحل المهمة في تبيان أقوال الإمام عليه السلام إظهار قوة التأثير في وجدان الإنسان عبر الحث المستمر والدعوة إلى توطيد أواصر الخطاب في النفس، ومما يستوجب الانتباه إليه هي كثرة الاهتمام بالمتلقي؛ ليكون طرفاً في الخطاب الإرشادي، وهي فكرة توافق أفق التوقع الذي طرحه (ياوس) الذي يعدّ هذه الرؤى «منظومة من المعايير والمرجعيات لجمهور قارئ في لحظة معينة تتم انطلاقاً منها قراءة عمل، وتقويمه جمالياً وهذا العمل نفسه يمتلك أفقه الخاص»[٢٩].

إنّ النسق الجمالي فيه اتساع في الاستعمال ومن خلال إيراد بعض المقاصد من البراهين والشواهد، فضلاً عن المقاصد الفكرية والعقيدية والنفسية والاجتماعية، وإنّما الدعوة لاختيار النصوص لاستجلاء المقاصد والكشف عن قيم النص الظاهرة والباطنة واستنطاق الألفاظ والجمل للوقوف على الدلالات، ومن يتتبع الأفكار تواجهه تلك القدرات الفكرية والعلمية، فمن مقاصده تثبيت أركان العقيدة الإسلامية، لذا وجد ثمة ضرورة لرسوخ ما دعا إليه القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وسُئل الإمام عليه السلام عن خيار العباد فقال: ((الّذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤوا استغفروا، وإذا أُعطوا شكروا، وإذا ابتُلوا صبروا، وإذا غضبوا عفَوا))[٣٠]، جمع الإمام آيات متعددة في مضمون قولي يدعو إلى الإحسان والاستغفار والشكر والصبر والعفو، كذلك إلى ايضاح دور العبد الصالح في النهج الحياتي تجاه الناس وتجاه ربه ليركن إلى القول الطيّب في قَوْلِه تعالى: ((فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ))[٣١]، وينتهي قول الإمام عليه السلام ليكون ترجمانَ الآية القرآنية في قوله تعالى: ((وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ))[٣٢].

ومما يؤكد الكلام في النفس الثراء البلاغي والجمالية التعبيرية التي تضيف نكهةً أخرى على النص، وتفرز أقواله وتردفه بالمؤولات،ومن الشواهد الأخرى التي نستدل من خلالها على حملة تصحيح المفاهيم هذه، نظرة الإمام عليه السلام العميقة لمفهومي «الجود والبخل» علماً بأنّ الجود يمثل أحد الخصال العربية الأصيلة، التي يتباهى بها البعض دون أن يعرف أبعادها وما تنطوي عليه من بُعد عبادي:

((سأله عليه السلام رجل وهو في الطواف: أخبرني عن الجواد؟فقال : إن لكلامك وجهين، فإن كنت تسأل عن المخلوق، فإن الجواد هو الذي يؤدي ما افترض الله عليه، والبخيل من بخل بما افترض الله عليه. وان تكن تعني الخالق فهو الجواد ان أعطى، وهو الجواد إن منع، إن أعطى عبدا أعطاه ما ليس له، وان منع منع ما ليس له))(٣٣)، هذا الاستدلال تكشف مضمونه هذه الرؤية القرآنية في قوله تعالى ((والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون))(٣٤).

وبهذا يتضح أنّ الإمام عليه السلام يؤكد عند الإجابة على دقة السؤال وعن كيفية الإجابة التي تتلاقى مع مضمون السؤال الذي يفصّل القول مع السائل ليوصل إليه الإجابة الدقيقة، وهذه رؤية تنسجم وتأكيد الجاحظ وهو يكشف للقارئ الدقة في الاختيار ورسوخ المرجعيات في النفس كي يتحلى بالقول إذ يذكر «رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام وحلّيُها الأعراب وبهاؤها تخيُّر الألفاظ»(٣٥)، وتتجلى الوظيفة الإفهامية كسمة مميزة، ومما تزيد من ذلك الممارسة التواصلية من أجل الوصول إلى إبانة الكلام بطريقة منسجمة يتحقق فيها الجانب الفني الجمالي والصياغات البلاغية، وبهذا تشكّل مصدرَ طاقةٍ فكريةٍ وعاطفيةٍ مشحونة بقوة الحس وجمالية التعبير مع براعة التصوير.

يترشح من المحاججات والرؤى للإمام ﷺ إلى تحقيق أهداف عديدة منها: المحافظة على الأفراد المحصنين عقائدياً الواعين فكرياً، والتأكيد على القيمة الحضارية للعقل من خلال التحرر من الجهل وتحكيم العقل في الاختبار في شؤون الحياة، ومحاربة الفكر المنحرف فإنه الأداة الخفية لدمار المجتمع، لذا انبرى الخطاب المواجه، وحقق القيم الإسلامية من خلال ما أفرزته بعض المقولات الذي وجد المضمون القرآني صداه فيها، وهذا ما كان مبتغى الإمام ﷺ؛ لتحقيق أهداف عديدة تختص بالقيم النبيلة والمبادئ السامية، وبهذا حققت المقولات رؤيتها، وتعزز وجودها من خلال غرس السلوك الصحيح وتقديم الأفضل للتوجيه الفكري.

المحور الرابع: الدعاء وسيلةً ومنهاجاً إنسانياً

الدعاء طريقة تعليمية تهذيبية وتربية أخلاقية تُعد من أرقى مناهل الفلسفة في الأخلاقيات؛ لكونه يمثّل الوساطة المهذبة بين الخالق وربّه، وهو يحمل أسمى العبارات المشفوعة بالعاطفة المجسدة بالرغبة لتقبل قربان الكلمة وتحقيق الحاجة المرجوة، وهو وسيلة أخرى يرجو العبد من خلالها توثيق أواصره بالله(عزَّ وجلَّ) من خلال الاهتداء إلى ربٍّ كريم يتحقق كل شيء في (كن فيكون)، فضلا عن أنّ الدعاء قد اتخذه الأنبياء عليهم السلام ليكون السبيل إلى ربهم في تحقيق مآربهم وفي مناقشة أدق أسرار النبوة والتوحيد لتعليم الآداب الإسلامية والأخلاق الإنسانية، كذلك يكشف الدعاء مقدرة الله تعالى الخالق العظيم حينما يعجز العبد في تحقيق ما يصبو إليه فيلجأ برسائله، وعندما تتحقق الاستجابة يتضح لجوء العبد ومدى ضعفه في قبالة المقدرة الإلهية العظيمة.

((عن ابن فضال، بإسناده إلى الرضا عليه السلام أنّه كان يقول لأصحابه : «عليكم بسلاح الأنبياء»، فقيل: وما سلاح الأنبياء؟ قال : « الدُّعاء »))[٣٦]، تمكين النفوس من الاسترقاق من خلال الارتباط بالله (عزَّ وجلَّ)، وإطلاق العنان لخطاب الدعاء ليكون الأمثل في المخاطبة، ((وإذا سالك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني))[٣٧].

أمّا الجانب الآخر فإنه يعد من طرق الهداية التي تجعل العبد يستذكر أنّ للكون خالقاً عظيماً، وهو القادر وحده على أن يدفع عنه الضرر، ويجلب له السعادة في ضوء عمله الصالح، فضلاً عن أنّ الفكر يستنير وتتفتح مداركه وهو يتسلق مدارج النور، وربما يتجلى الهدف المقصود من خلال الدعاء الذي تعود فائدته على النفس، وهي تنسغ نور الدعاء من أجل التمحيص في المعرفة، وبهذا يتحقق النجاح عبر تجلي الصبر على البلاء وانتظار فرج الدعاء الذي أوكله إلى ربّه.

وغالباً ما يكون الدعاء في السر أكثر ثواباً من الدعاء في العلن، لأن الأول يمثل اتصال مباشر بين العبد وربّه لا يتسرب إليه الرياء والنفاق أو إلحاق الأذى بالنفس أمام الظالمين وبهذا يوصي إمامنا عليه السلام بدعوة السرّ: ((عن أبي همّام إسماعيل بن همّام عن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: ((دعوة العبد سرا دعوة واحدة تعدل سبعين دعوة علانية)). وفي رواية أُخرى ((دعوة تخفيها أفضل عند الله من سبعين دعوة تظهرها))[٣٨]، ومصداق ذلك قول الله تعالى((ذكر رحمت ربّك عبدهُ زكريا ❁ إذ نادى ربّهُ نداءً خفياً ❁ قال ربّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعئك ربّ شقياً ❁))[٣٩].

ومما يتضح في الدعاء الحذف والانتقاء من خلال بلورة الوعي في الخطاب؛ ليكون الأمثل في التوجه لله(عزَّ وجلَّ)، لذا كان لزاماً أن نعرض أن الدعاء للإمام الرضا عليه السلام قد شمل سمتين الأولى من خلال ما يقوله بين الصلوات الخمس، ومنه مايكون ضمن تلك الصلوات، ومنه مايكون مصادفةً عند الحاجة إليه؛ ذلك أنّ الكلم الطيب يصعد إلى الله(عزَّ وجلَّ) من خلال الدعاء المملوء بالصدق الذي تصل وشائجه إلى الملكوت السماوي عبر وسائل ترفع بالرجاء وتعود بالعطاء.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ في الدعاء أسساً معرفيةً وعلوماً مخبئةً تنير الروح من قبسات وحي الدعاء، لذا يسعى العبد وفي محاولات دؤوبة لإقامة لغة مشبعة بنجوى الضمير ودعوة كبيرة للتأمل، لمواجهة بعض العداء القائم على أُسس غير علمية وتقديم حجج مليئة بالمبالغة المغدقة في العداء إثر تنافس محموم، لذا نجد الدعاء يوصل السبل بين الأرض وأسباب السماء، ومن دلائل هذا الاهتمام بالدعاء هو إقامة سد منيع في وجه هذا اليأس من خلال تعضيد الدعاء بالروح التي تناجي ربها بصدقٍ ونقاءٍ، لذا حظي الدعاء باهتمام أهل البيت عليهم السلام جميعهم؛ لأنه الوسيلة المثلى في التعبير عن آمال النفس وطموحاتها، والكاشف عن شجن النفس في خفاءٍ.

ولعل من الأمور الثابتة أن للدعاء وجوداً راسخاً في القرآن الكريم، وفي الأحاديث النبوية الشريفة، وفي أقوال أهل البيت عليهم السلام؛ لما للدعاء من أثر شاخص يتجلى فعله في مضمار الوجود وتتضح نعمته بتحققه، لذا نجد أغلب الأنبياء قد لجأوا إلى الدعاء وقد أدلى عليهم بوافر مسبغاته، ويمتد الدعاء ليترك أثره في النفوس بعد حصول الاستجابة، إذ فيها دعوة أخرى للتمسك به من أجل اتخاذه سلاحاً، فضلاً عن أنّه أحد الروافد المهمة لمناهل العلم والمعرفة.

وتتوزع أهميته على محاور عديدة ففيه إرشاد من أجل الاهتداء بمضامينه والسير بها، وظاهرة انتقاد السلطة من خلال إظهار المحاسن لسلطة الإله الذي يرزق الخير للمؤمنين ولغيرهم، يكشف الدعاء الدرس الأخلاقي في القيم السماوية، وهي تتنبأ لمشروع إنساني وتوليه رعاية فائقة.

وصار المتلقي مطالباً بأن يولي عنايته في الاهتمام بجانبين مهمين مع الاعتراف ببراعة الباعث على القول، فالأدعية تجنح للتأمل والنزوع والتأويل عبر أساليب التعبير الشاخصة والمجسات غير الجافة في الإيحاء والبوح، فهي دلالات ذات أصداء تنفث الحياة في الوجود الإنساني.

لذا فإن الدعاء يجذب إليه الإنسان لما فيه من تنفيس الكربة وتخفيف الآلام، كذلك أن وسيلة الدعاء فيها مواجهة للسلطان الذي يهدّ أركانه، وإنما تمكن رغبة أخرى في بدء عصر جديد من الوعي في المخاطبة وإظهار عمق الثقافة في التخاطب، وتكوين الانفتاح البصير على مفاهيم وقيم إنسانية راسخة في الدعاء في أجواء مشحونة بالتقلبات وتسيّد الطغيان، فضلاً عن أنّ الدعاء يواكب لحركته الفكرية والحياتية التي يعيشها الإنسان، وإنما السير به هو إحداث قفزة نوعية كبيرة في الواقع الإنساني، ومن دلائل هذا الاهتمام إقامة سد منيع في وجه اليأس، وتعضيد دلائل سماوية يكتنزها الدعاء بالموضوعية التامة، فالألفاظ معززة بقوة الدلالة، والمعاني موشحة بالبلاغة وتأكيد المعنى، وفيهما اعتراف بوحي السماء والإقرار بالنعمة، ودفع الخصم إما للتمويه أو مواجهة مصيره النهائي وبهذا تحقق في الدعاء والتوجيه توصيل الموعظة وإبلاغ الحجة في الخطاب.

أمّا فيما يخص الدعاء فإنه يتجاوز النظرة الأحادية، بل هو فصل تحاوري يملك ديناميّة تنقله من حالة الرجاء الى حالة العطاء، وبهذه الرؤية فإنه يشكّل مكسباً في الحصول على التساؤلات المرفوعة إلى السماء.

إن استجلاب الرحمة وحصول المغفرة إنما تكون بالاستغفار، والاستغفار دعوة صريحة دعا إليها الرب الكريم، لتكون السبيل والمقدمة للتوبة، ولتخفيف العقوبة أو إلغائها لكسب عفوه، على أن يكون الصدق معياراً للدخول في رحم الاستغفار، ويعد الدعاء دعامة راسخة بين الخلق والخالق وتكرس الدعاء بمؤهلات بعدما كُفِل بالإجابة بعد استكمال شرائطه، ومن بر الوالدين أن يتعدد الدعاء لهما بعد وفاتهما.

المحور الخامس: المقاصد الاصلاحية مصاديق للمقولات والرؤى

انبرى خطاب الإمام عليه السلام ليفضح السلوكيات الخاطئة التي لا تمد لروح الإسلام بأي نبض، فتراه عليه السلام يورد أدلته القرآنية، لتكون الرسل إلى الآخرين تنبههم وتنذرهم بخطر ما هم فيه حتى لا يختلط عليهم الأمر، فيتيهوا ويضلوا عن طريق الرشاد، وبهذا يدوّن في أذهانهم مسارب السبل الناجعة، تدعو أحاديث الإمام عليه السلام للحفاظ على التأريخ النضالي الذي جاهد من أجله أجداده وآباؤه وأصحابهم، لتبقى راية الإسلام مرفوعة، والتذكير بأن الارتداد والنكوص إنما هي عواقب لا تحمد، وليس للمرء من نجاة سوى الهدي لمسرى القرآن، في هذه الأقوال دعوة للنهضة بوجه الظلم كي لا يستبد بالناس فيهلك فيها أولهم وآخرهم وتنتهب الحقوق، بعض الأقوال وهي تنصح وتوجّه الناس وتوضّح ما أشكل عليهم، فقد أثبتت

عبر الأدلة أن الموضوعات التي تتناولها الأقوال لا يمكن الخوض في مضمارها إلا من تشم فيه صفات العالم المجتهد، جرت معايير الأقوال على وفق الهدف، وعلى وفق السياقات العلمية المعتمدة في إظهار ما خفي عن الناس لتأكيد الرسالة، لكونها حقيقة واقعة ويوافق المقام وعلى وفق مقتضى الحال، وتسخير الدلالات والمعاني، لتشكّل انسجامها مع المضامين القرآنية، لذا تجلى الخطاب في أخلص منطق وفي أعذب بيان يوضّح المبتغى على وفق فصاحة تستمد نسغها من القرآن والحديث النبوي الشريف وفي أجداده عليهم السلام، كانت الأقوال مثالاً للتماسك والانسجام، فضلاً عن اتساق العبارات وتبيان دلالاتها، وعبر ذلك إنما يتقرّب المعنى في النص ويكون الأقرب لذهن المخاطب لتقريب العلاقات المعنوية الصحيحة إليه مؤكدها من خلال تمويلها واستمرارها.

ويتجاور أمر الاصلاحات الجانب الدنيوي والتبصير به، بل يذكر الإمام عليه السلام إلى ذكر بعض الغيبيات ليهتدي المرء إلى سبيل الحق ويتخذ منه منهاجا، لذا يذكر ((سعيد بن عبد الله، عن أحمد بن حمزة الأشعري، قال: حدثني ياسر الخادم، قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: إنّ أوحش ما يكون هذا الخلق ثلاثة مواطن، يوم يولد ويخرج من بطن أمه فيرى الدنيا، ويوم يموت فيعاين الاخرة وأهلها، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا))(٤٠)، فقد ذكر الإمام عليه السلام هذه الأيام الثلاثة وهي بحق تُعد منعطفاتٍ مهمةً في حياة الإنسان، فلحظة الولادة لحظة الانتقال من النعمة والدفء والحنان، وهو في ظل رَحم أمه إلى أن يخرج من الدنيا ليحمل إليها البكاء ساعة يوضع إذ تمثّل له الحياة الأولى بطن أمه تلك الحياة هي أكثر سعةً واتساعاً وجمالاً، أمّا اليوم الثاني وهو يوم وفاته، فإنّ المرء ينتظر هول المطلع وهو يفارق أحبته وأهله ويطلع على عالم آخر في القبر لا يعلم ماذا به، فهو في انتظار طريق

موحش يسير به وحده له أن يتأمله عبر مخيلته، لكنّه لا يمكن أن يعيش شيئاً من تفصيلاته، ليبقى اليوم الثالث الذي يشكل المنعطف الثالث وهو يوم يبعث من القبر حين ينسل من الأجداث إلى ربه، وبذا مثلتْ هذه الأيام الثلاثة مركزاً مهماً للتحول، وهي مصداق لقوله تعالى ((وسلامٌ عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً))[٤١]، وقد سلم عيسى بن مريم عليه السلام على نفسه في هذه الأيام الثلاثة، فقال تعالى ((والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّا))[٤٢]، حين تحدّث وهو في المهد، وقد كشف بحق عن أمره وعن حقائق هذه الأيام.

وبهذا كانت أقوال الإمام عليه السلام نصحاً لا تثير الحقد ولا تدعو إلى الغيض، حتى تكشف ما يقتضيه ظاهر الحال وهو إنقاذ الأمة الإسلامية ممّا يُهدد سيادتها ومواجهة الزعامات المنحرفة بقوةٍ لا تتزعزع وبإرادةٍ لا تلين، ومقاومة التيارات الفكرية الضالة.

إن الأفكار التي تخلو من الوعي الإنساني تكتسب خصائص قمعية وعنيفة، إذ تتوجه هذه الأفكار لردع الضمير المثقل بالذنب، وبهذا اتضح فيما بعد للناس من خلال ما استدلوا عليه أنّ الأئمة عليهم السلام لم يلغوا دور الضمير في الإصلاح، وهو ما ارتكزت عليه الفلسفات اللاحقة، إذ الاعتماد على الفكر الصائب يؤدي إلى محاربة الفكر المنحرف الذي يكون الدمار الحقيقي للمجتمع وأقداره كالنار في الهشيم، فالعدوى الفكرية السيئة تنتقل بسرعة وتضع الإنسان في جرمي المهلكة والنقمة، فالتأكيد على قيمة العقل وتثمين دوره ما ارتكز عليه نظر أهل البيت عليهم السلام في تمييز الصالح من الطالح.

لاشك أن العصمة والامتداد النبوي لهما الأثر في تميز الإمام ﵇، فضلاً عن القواعد الفكرية والعمق العلمي التي تعد المعطيات الإيجابية التي ساندت الإمام في عطائه، وأنهم قدّموا أحسن الآثار وأروع الأفكار، وفي حديث آخر قال الإمام ﵇((التواضع درجات: منها أن يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم، لا يحبّ أن يأتي إلى أحد إلاّ مثل ما يؤتى إليه، إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ عافٍ عن الناس، والله يحب المحسنين))[٤٣].

وهي أقوال مستوحاة من روح القرآن الكريم التي من مضامينه الدعوة إلى التواضع التي ذكرها الذكر الحكيم ((ولا تصعّر خدَّك للناس ولاتمشِ في الارض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور))[٤٤]، ليبقى الجزء الآخر من القول مصداقاً لقوله تعالى((الذين ينفقون في السّرّاء والضّرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين))[٤٥]، أمّا الجزء الآخر من قوله ﵇ فهي تأكيد للآية القرآنية التي تذكر التأكيد على الأخلاق المحمدية التي تحنو على الصغير وتحقق المحبة للكبير، ويؤكد على سمة التواضع التي تكون السبيل إلى الخلق النبيل.

لعل الدور الأكبر كان للإمام ﵇ في إخراج الأمة من أميتها إلى الحضارة من خلال تأسيس أفكار ناجعة والدفاع عنها وإعلاء كلمة الله(عزَّ وجلَّ) وهو الهدف الأسمى، لتستمر كلمة الله (عزَّ وجلَّ) لإسعاد البشرية وتحقيق أهداف الجهاد، ليبقى كل ما يبذله الإمام ﵇ هو (شكر) يدعو للدفاع (عطاء من النفوس) قال الإمام الرضا ﵇: ((مثل الاستغفار مثل ورق على شجرة تحرَّك فيتناثر، والمستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزىء بربّه))[٤٦]، وبهذا فإن صمام الأمان النهائي للذنب يتحقق في ميل الإنسان إلى الاستغفار، وهو ما يفتح الطريق نحو العبد ليهتدي بعد ضلالته فيقول الذكر الحكيم((واستغفروا ربّكم ثم توبوا إليه إنّ ربّي رحيم ودود))[٤٧]،

يصوّر الإمام عليه السلام صورة رائعة عن الاستغفار ويقرّب الصورة إلى الفكر الإنساني، ليهتدي الناس ليبعد الضلالة عنهم ويقرّبهم من الله تعالى.

يتضح مما تم طرحه أنّها نهضة الدين في مواجهة المشكلات الناجمة في عصره التي منها الثقافية والفكرية، فضلاً عما تكرّس من دعوات للإمام عليه السلام في الحفاظ على هوية التشيّع، شكّلت ظاهرة الحياة السياسية أثرها في حياة الإمام، لذا كان الإمام عليه السلام بين أمرين في كيفية التعامل مع السياسة التي يراها البعض أنها تعارض نبض اتجاهاتها مع الدين، وكيفية معالجة الاتجاهات الفكرية وما تكتنزها من فكر وعقيدة، وإحياء مآثر الإسلام.

تجلّت صور الصراع الفكري من خلال مجالس المناظرة وتصحيح المفاهيم الخاطئة، ودحض الحجج الواهية، وامتثال أجوبة الإمام (التعددية الثقافية) من خلال تفعيل الجدل والنظر والبحث، ليكون الدليل في الإقناع، ولا سيما في استنادها إلى مفاهيم القرآن، وممارسة الدور العلمي أكثر من الدور السياسي بوصفه أرفعهم علماً وأوسعهم وأكثرهم جلالةً وشرفاً.

فضلا عن الوازع الأخلاقي الذي يدعو إلى انتهاج السبيل الأنجع في الحياة لاتخاذ الطريق الصائب، وهنا يتجلى قول الإمام عليه السلام:((عن الحارث بن الدلهاث مولى الرضا عليه السلام، قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون فيه ثلاث خصال سنة من ربّه، وسنة من نبيه، وسنة من وليّه، فالسنة من ربه كتمان سره، قال الله (عزَّ وجلَّ)((عالم الغيب لا يظهر على غيبه أحداًوإلا من ارتضى من رسول))[٤٨]. وأما السّنة من نبيّه فمداراة الناس، فإنّ الله (عزَّ وجلَّ) أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بمداراة الناس فقال ((خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين))[٤٩]، وأما

السنة من وليّه، فالصبر في البأساء والضراء، فإن الله (عزَّ وجلَّ) يقول: ((والصابرين في البأساء والضراء)). (٥٠)(٥١)

كانت تلك الأجوبة دالةً على وعي يسوق الأفكار ويغرسها في العقول المتعنتة التي تراهن على طفح السيء من القول وإظهار القبيح من الأفعال، واللجوء إلى الدقة في التعبير والدعوة إلى التماسك الفكري.

كان لا بدَّ للإسلام من أن تتضح معالمه بوصفه فكراً أصيلاً، ولا بد أن تشخص أركانه وعلى وفق قراءة صحيحة لمواجهة الإتجاهات المتناقضة والمتناظرة الداعية إلى الفرقة والتدليس، ولاسيما ما ظهر من تيارات متعددة، ولا شك أن الإمام هو الفرع السامي والأُس الذي ارتكز عليه الهدى، وهو الصوت الذي لا يسمع منه إلا نداء التوحيد ولا يخضع إلا لسلطان الحق.

المحور السادس: الصمت حواراً آخر للإصلاح

ثمة علاقة وطيدة بين الصفاء الذهني والروحي للعبادة وبين الصمت الذي يهيء له ذلك، ليكون الحوار هو السبيل بين الخالق والمخلوق، وإنما تتجلى القاعدة التربوية يحددها على وفق المفهوم القرآني من خلال تعزيز الأساليب المؤدية، وللصمت أنواع متعددة تهدف إلى التقديم؟ وهنا يمكن الحديث عن نوع واحد هو استدلال حواري آخر، الغاية منه تحقق الإصلاح لأن الحوار فيه يقود إلى السجال، فضلاً عن أن أكثر مشاكلنا تتأتى من إطلاقنا العنان لألسنتنا من دون ضابط، وأن الكثير منّا يرغب في الكلام أكثر من الاستماع، لذا لأبدّ أن نعتصم بالصمت في حالات الانفعال أو المواقف الحرجة، أو من أجل الحفاظ على الأسرار.

من هنا يشيد إمامنا عليه السلام بالصمت، فهو عنده من علامات الفقه، وباب من أبواب الحكمة، ويرى بأن له معطيات اجتماعية عديدة، وهي في صالح الإنسان، ليختار طريقه الصائب: عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال : قال أبو الحسن الرّضا عليه السلام: ((من علامات الفقه: الحلم والعلم والصمت، إنَّ الصمت باب من أبواب الحكمة، إنَّ الصمت يكسب المحبة، إنه دليل على كل خير))[٥٢].

يؤكد الإمام عليه السلام أنّ الصمت باب من أبواب الخير ويراد به الصمت الذي يتجلّى فعله على كلامه، ويكون المهيمن في الدلالة، ومن المفيد التذكير أن هناك علاقة وثيقة بين العبادة والصمت، فالعبادة عادةً تحتاج إلى صفاء وتفرغ عن المشاكل، واللسان المهذار أحد الأسباب التي تكدر صفو العبادة،وتسهم في إبطالها؛ لكونه يوقع الإنسان في شرك الشيطان الذي يوحي له بالسوء والفحشاء، الأمر الذي ينعكس سلبا على العبادة، كذلك إذا تفوّه الإنسان بكلمات كبيرة كالقذف والسّباب والفسوق وما إلى ذلك.

من هنا ينبه الإمام عليه السلام إلى حقيقة هي أن السيطرة على النفس لا تتمّ إلاّ عن طريق عقل اللِّسان عن عبارات السوء والفحشاء، والابتعاد عن المنكر والرذيلة:((عن الوشّاء، قال : سمعت الرضا عليه السلام يقول: كان الرجَّل من بني إسرائيل إذا أراد العبادة صمت قبل ذلك عشر سنين))[٥٣].

أمّا في القرآن الكريم فإننا نجد ما يدلُّ على ذلك صوم الإنسان عن القول ليبتعد عن تكذيبه بل يجعل الشاهد على الجواب صمته((فكلي واشربي وقري عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرتُ للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا))[٥٤]، إذ جاء الصوم بمعنى الصمت، وهذه واحدة من ملامح الصمت الذي كشف انتصاره من خلال قبول الإمام بولاية العهد، صامتاً لربّه بعبادته، وساعياً إلى عمل الخير حين يقضي أمر الله تعالى بالكتمان.

الخاتمة

حين يتسع الاستبداد ويمتد الظلم ليغطي ملامح الرؤى القرآنية، وقيم الإسلام الحنيف فإن أهل البيت عليهم السلام يتصدون بكل ما آتاهم الله تعالى لمعالجة هذه الامتدادات الشاذة التي تبعد الناس عن الإسلام المحمدي الحنيف، ولهذا حين تكشف لهم المضامين القرآنية طرق تبعدهم عن الضلالة يزداد اهتدائهم بالسبل والوسائل إليه وهم العترة الطاهرة عليهم السلام، ليوضحوا ما ضاق على الناس فهمه، ويجعلونهم يستنيروا بالفكر المحمدي الذي يدعو إلى الهدى والإيمان.

كانت سلطة مسخّرة لتقريب الهدف الديني إلى الذوات التي تسلك الضلالة إلى نفوسهم، فكانت الهداية بديلاً لهم عبر الاهتداء بأهل البيت عليهم السلام، من أجل اقتفاء العدول في الأساليب، واستجلاء المعاني المتوارية خلف الأساليب.

وبهذا تصدى الإمام عليه السلام لدعوات الضلالة الأموية التي أرادت للنهج القرآني أن يتغير مساره وأن يكون الهدف الأسمى لهم عبر تضليل الناس وإبعادهم عن المسار القرآني، وما جاء به الإسلام الحنيف لتكون الغلبة للإسلام الأموي الذي يدعو للضلالة والانحراف.

ولهذا وجدنا أقوال الإمام عليه السلام تدعو الناس بالرجوع إلى القرآن الكريم والاهتداء بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يتجنبوا الخطأ، وأن يهتدوا بقوله الذي هو الامتداد الحقيقي للقرآن الكريم.

يتأرجح المجال الدلالي لتتشكل فيه إفرازات الرؤى البلاغية، وفي مضامين تُعزز التوقعات نحو تجذّر وعمق، ومن خلال متابعتي لأقوال الإمام الرضا عليه السلام وجدت أن ثمة خلاصات يمكن تشكلها هي:

١- النص القرآني الذي كشفت عنه مقولات الإمام عليه السلام إنما أراد به أن يهتدي أصحابه لأن ذلك هو السبيل إلى الله سبحانه وتعالى، وكذلك أراد من أصحابه أن يعلّموا الناس ليهتدوا، وبذلك يشيع المعروف بين الناس عبر الهداية بالأقوال.

٢-تعزيز الحكمة في النصح وتطويع الكلمات لكي تأخذ أمدها في التأثير، كذلك اقتباس بعض الرؤى القرآنية من أجل التذكير.

٣-تطعيم النصوص ببعض التهديد القرآني وذكر الوعيد لمن يستمر في ارتكاب المعاصي، وعدم الهدي في الطريق القويم.

٤-إبراز الخشوع والعمل على تأديب النفس في مخاطبة الخالق العظيم عند الدعاء، وايضاح حجم الصلة بين الخالق والمخلوق عبر الصدق في التعبير، وخشوع الروح والوجدان.

٥- وجود الإمام بهذا المكان السياسي المفروض أمره لم يمنعه من نشر الدعوة الحقيقية وتبيانها للناس، ولا سيما أنهم بأمس الحاجة لإزالة ما اختلط عليهم، أو ما اختلط على البعض من أن الإمام عليه السلام ولي عهد العباسيين فلربما ظن البعض أنّه يوافقهم وأن نهجهم هو النبع القويم في الحكم، وأنهم يمثلون الشريعة الحقيقية لمنبع القرآن والسنة النبوية، وبهذا تصدى الإمام عليه السلام لإضعاف هذه الدعوة، ووضّح أنّ السلطان الذي أُجبر عليه إنما هو سلطان زائل من بني العباس والسلطان الحقيقي يتجلى بوجود القرآن، وتثبيت الدعوة الإسلامية منهاج جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٦- ومما يتضح أنّ علوم أهل البيت عليهم السلام قد خفيت عن الدرس العلمي، وواضح أنّ من يقف وراء هذا القصد هو السبب السياسي بالدرجة الأولى؛ لكونها تكشف زيف مناهجهم، فاطلاع الإمام عليه السلام على الحقائق العلمية والفلسفية وإحاطته بالسنة النبوية، فضلاً عن المساهمة بكل العلوم، وجهوده في البحث والتأمل.

الهوامش

١- مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، لأبي جعفر رشيد الدين محمد بن علي بن شهرآشوب السروي المازندراني ت(٥٨٨هـ)، مؤسسة انتشارات علّامة- قم، ج٤: ٣٩١.

٢-سورة هود: ٤٥-٤٦.

٣- سورة الجن: ٢٣.

٤- عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ أبي جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ت(٣٨١هـ)، منشورات الشريف الرضي، ١٩٨٤م، ج١ : ٢٣٤.

٥- سورة النور: ٥٦.

٦- سورة الإسراء: ٢٣.

٧- سورة لقمان: ١٤.

٨- سورة النساء: ١.

٩- عيون أخبار الرضا:١: ٢٦١.

١٠- عيون أخبار الرضا عليه السلام:١ : ٩٢.

١١- الآمال أو المجالس ابن بابويه، ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين (ت ٣٨١هـ) منشورات الاعلمي للمطبوعات بيروت-لبنان ١٤١٠هـ-١٩٩٠م: ٢٠١.

١٢- سورة الأنعام: ١٠٣.

١٣- ينظر: أصول الكافي: الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب، ت(٣٢٨هـ) منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ج١: ٥٨.

١٤- عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١: ١٢٠.

١٥- سورة الشورى: ٥١.

١٦- سورة الأنعام: ١٠٨

١٧- عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١ : ٢٧٢ .

١٨- سورة فصلت: ٣٤.

١٩- سورة يس : ١-٢-٣-٤.

٢٠- سورة الصافات : ٧٩.

٢١- سورة الصافات: ١٠٩.

٢٢- سورة الصافات: ١٢٠.

٢٣- سورة الصافات : ١٣٠.

٢٤- عيون أخبار الرضا عليه السلام:١ : ٢١٤.

٢٥- أصول الكافي، ثقة الإسلام المؤلف الشيخ محمد بن يعقوب الكليني ت(٣٢٨هـ)، دار المرتضى للطباعة والنشر، بيروت- لبنان ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ج٢: ١٦.

٢٦- سورة الحجرات: ١٤.

٢٧- سورة الحجرات: ١٣.

٢٨-سورة الحجر:٩٩.

٢٩- نظريات القراءة، من البنيوية إلى جماليات التلقي، رولان بارت وآخرون، تر: عبد الرحمن بو على، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ٢٠٠٣م:٣٦.

٣٠- تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، الشيخ أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني: قدم له وعلق عليه: الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان: ٣٢٨.

٣١- سورة الزمر: ١٧-١٨.

٣٢- سورة البقرة: ١٥٥.

٣٣- الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، علي بن محمد بن أحمد المالكي المكي المشتهربابن الصباغ المالكي ت(٨٥٥هـ)، دار الأضواء، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٨٨م: ٢٤٨.

٣٤- سورة البقرة: ٢٤٥.

٣٥- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٧، ١٩٩٨م: ٤٤.

٣٦- أصول الكافي ٢ : ٤٦٨.

٣٧- سورة البقرة: ١٨٦.

٣٨- أصول الكافي ٢ : ٤٧٦

٣٩- سورة مريم: ٤،٣،٢.

٤٠- عيون أخبار الرضا عليه السلام:١: ٢٣٣.

٤١- سورة مريم: ١٥

٤٢- سورة مريم: ٣٣.

٤٣- أصول الكافي ٢ : ١٢٤.

٤٤- سورة لقمان: ١٨.

٤٥- سورة آل عمران: ١٣٤.

٤٦- تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، أبي الحسين ورّام بن أبي فراس بن حمدان المالكي الأشتري، ت(٦٠٥ه)، تحقيق وتعليق: باسم محمد مال الله الأسدي، ج٢: ٢٣٧.

٤٧- سورة هود: ٩٠.

٤٨- سورة الجن: ٢٦-٢٧.

٤٩- سورة الأعراف: ١٩٩.

٥٠- سورة البقرة: ١٧٧.

٥١- كشف الغمة في معرفة الأئمة عليهم السلام، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي فتح الأربلي ت(٦٩٣هـ)، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ج٣، بيروت، ٢٠١٢م: ٨٤.

٥٢- أصول الكافي ٢ : ١١٣.

٥٣- مناقب آل أبي طالب عليهم السلام ٤ : ٣٩.

٥٤- سورة مريم: ٢٦.

المصادر

١. الآمال أو المجالس، ابن بابويه، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين (ت ٣٨١هـ) منشورات الأعلمي للمطبوعات بيروت- لبنان ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٢. أصول الكافي، الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب، ت(٣٢٨هـ) منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٣. أصول الكافي، ثقة الإسلام المؤلف الشيخ محمد بن يعقوب الكليني ت(٣٢٨هـ)، دار المرتضى للطباعة والنشر، بيروت- لبنان ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٤. البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٧، ١٩٩٨م.

٥. تحف العقول عن آل الرسول ﷺ، الشيخ أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني: قدم له وعلق عليه: الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان.

٦. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، أبو الحسين ورّام بن أبي فراس بن حمدان المالكي الأشتري، ت(٦٠٥هـ)، تحقيق وتعليق: باسم محمد مال الله الأسدي.

٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ أبو جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ت(٣٨١هـ)، منشورات الشريف الرضي، ١٩٨٤م.

٨. الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، علي بن محمد بن أحمد المالكي المكي المشتهر بابن الصباغ المالكي ت(٨٥٥هـ)، دار الأضواء، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٨٨م.

٩. كشف الغمة في معرفة الأئمة عليهم السلام، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي فتح الأربلي ت(٦٩٣هـ)، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، بيروت، ٢٠١٢م.

١٠. مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، أبي جعفر رشيد الدين محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني ت(٥٨٨هـ)، مؤسسة انتشارات علّامة- قم.

١١. نظريات القراءة، من البنيوية إلى جماليات التلقي، رولان بارت وآخرون، تر: عبد الرحمن بو على، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ٢٠٠٣م.